تجربة الكتابة عند البشير الإبراهيمي؛ مسيرة مثقف جزائري وسيرورة ذات فاعلة

The writing experience of Al Bachir Al Ibrahimi: the march of an Algerian intellectual and an effective self process

د. ونيسة بوختالة

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/29 **تاريخ القبول:** 2020/03/12

ملخص:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت قضايا العروبة والإسلام، تحليلا وتنظيرا وتشخيصا لواقع التجربة الثقافية في الجزائر وعلاقتها بالغزو الفكري الذي شهد تغريب الهوية والذات، لكن تكاد تنعدم تلك الدراسات المعمقة التي تشكل الجانب الأهم والأساسي في الممارسات الاجتماعية الماثلة في ثقافة الذات في تجربة العلامة محمد البشير الإبراهيمي.

لقد استطاعت كتابات الشيخ المفكر والمصلح أن تصوّر مفهوم الذات والهوية انطلاقا من وعي منبثق عن ميراث عربي إسلامي، اتجه نحو التبلور في شخصية مشروع مثقف جزائري متجذر في محيطه العام والخاص بجميع معطياته التاريخية والقومية والدينية... المبشرة بصيرورة مستقبله لمجتمع يطمح إلى اللحاق بركب المجتمعات الحديثة، وخلق جو أنسب لمظاهر الحياة لدى الجزائريين. ولم يكن الشيخ يسعى إلى نوع من الفكر المداهن، أو الثقافة المدجنة –كما يُشيع بعضهم– بل إن أدبه كان منبثقا من فكر ثوري مسكونٍ بهواجس الثورة والتنمية والتعريب واسترجاع مظاهر الهوية المسلوبة، متجهٍ نحو الإيمان بالمستقبل والعلم والعقيدة والإنسان.

الكلمات المفتاحية: الكتابة، البشير الإبراهيمي، الثقافة، الذات، تداولية الخطاب.

Abstract:

Many studies dealt with the issues of Arabism and Islam analysis, theorizing and diagnosing the reality of the cultural experience in Algeria and its relation to the intellectual invasion that witnessed the alienation of identity and self, but there are almost no in-depth studies that are the most important and fundamental aspect of the social practices in the culture of the self in the experience of Mohammed Al-Bashir AL-Ibrahimi.

The writings of the intellectual and reformer Al Ibrahimi were able to visualize the concept of self and identity based on an awareness emanating from an Arab-Islamic heritage, which turned towards the descent and crystalization in the personality of an Algerian intellectual project rooted in its public and private surroundings all its national and religious aspects that hopes for a society that aspires to catch up with modern societies, and create an atmosphere that is more suitable for the manifestations of life for Algerians. The Sheikh did not seek a kind of domesticated thought, or domesticated culture, as some of them are common, but his literature was derived from a revolutionary thought haunted by the obsessions of revolution, development, arabization and the restoration of the manifestations of stolen identity, oriented towards faith in the future, science, faith and man.

Keywords : The writing, Al-Bashir AL-Ibrahimi, the culture the human self, pragmatic of discourse.

مقدمة:

يعرض هذه المنجز مختصر تجربة كتابية خلّدت أحد عظماء الجزائر، مستعينا في ذلك بأرسخ النصوص التي شكلت رؤية ثقافية ثاقبة، ألهمت الباحثين وفتحت أمامهم مجال دراسة مجموعة من القضايا الفلسفية والعقدية واللغوية الإبراهيمية، وأماطت اللثام عن فكر صاخب وسبق صائب في معالجة قضايا الذات الجزائرية القابعة تحت سلطة الهوية بكل أشكالها ومكوناتها وموروثاتها.

إن قراءة فاحصة في تلك الآثار التي جمعت عن الشيخ ستتكشف من ورائها لا محالة تلك اللوحات الثقافية التي تمازجت ألوانها، لتصور سيمياء الذات، وتتيح للقارئ الفذ تأويل أبعادها، انطلاقا من تتبعه لمسيرة الشيخ ذاته، وصيرورة المجتمع الذي عاش فيه، باحثا عن عناصر الثقافة والتثاقف، وكل ما من شأنه أن يضيء درب الكشف عن معالمهما.

وسيحاول هذا المنجز الموسوم بـ: "تجربة الكتابة عند البشير الابراهيمي؛ مسيرة مثقف جزائري وسيرورة ذات فاعلة" أن يجيب عن مجموعة من التساؤلات التي يطرحها قارئ نصوص الإبراهيمي، وذلك لما أُثِر عن الكاتب من تداول لفكر مفعم بالمفاهيم اللغوية والأدبية والثقافية والسياسية ...، ومن أهم التساؤلات: ماهي الدعائم الجمالية والمرجعيات الثقافية المؤسسة لعناصر الكتابة الإبراهيمية؟

ويبدو أن الإجابة عن هذا التساؤل العام، وما يندرج تحته من تساؤلات فرعية؛ يمكن أن تحصل إذا ما حاولنا مقاربة جملة من النصوص الإبراهيمية باستخدام المنهج التداولي القائم على الاستقراء والتحليل ووصف التجارب. مستعينين على ذلك بالاستشهاد ببعض الاقتباسات المباشرة من آثار الشيخ، والشواهد المبثوثة ضمن بعض المؤلفات التي كشفت هي الأخرى عن جودة السبك وبراغماتيتها في زمنها، وسيرورة الانتفاع بها حتى في أيّامنا هذه. وهو ما يدلّ على أن بحثنا هذا ليس بسابقة، وإنما هو إضافة نحسبها ستضفي قراءة أخرى لجهود الشيخ.

وسيكون مسار هذا المنجز مكونا من جملة المباحث الآتية:

1. عناصر الثقافة:

تنقسمُ عناصر الثقافة إلى العناصر الماديّة والمعنويّة، وتشتركُ في العديد من الخصائص والسمات، التي نذكر منها:

– العموميّات: هي العناصر التي يشترك فيها أفراد المجتمع كلهم، وهي أساس الثقافة، وتمثلُ الملامح العامة التي تتميز بها الشخصيّة العامة لكل مجتمع من المجتمعات؛ مثل: اللغة

والملبس والعادات والتقاليد والدين والقيم، وتُفيد هذه العموميّات في ربط أفراد المجتمع واتجاهاتهم وزيادة روح الجماعة والتماسك الاجتماعيّ بينهم.

– الخصوصيّات: تلك العناصر التي يشتركُ فيها مجموعة معينة من أفراد المجتمع؛ كالعناصر التي تتعلق بالمهارات الأساسيّة للمهنة مثلاً، وترتبطُ الخصوصيات بالطبقة الاجتماعيّة فالطبقة الأُرستقراطيّة في المجتمع تختلفُ ثقافتها عن الطبقة المتوسطة.

– البدائل والمتغيرات: هي العناصر التي تظهر حديثاً، وتُجرّب لأول مرة في ثقافة المجتمع ويكون الخيار مفتوحاً أمام الإنسان في تبنيها أو تركها، كظهور أشكال جديدة في الملبس أو طريقة لإعداد الطعام لم تكن موجودة من قبل في المجتمع[1].

2. إنتاج الدوال الثقافية في كتابات العلامة الإبراهيمي:

لقد سار الشيخ البشير الإبراهيمي بخطى ثابتة نحو إنتاج أدب إنساني أعاد تشكيل الواقع عامة والواقع العربي والجزائري بشكل خاص بمختلف ملابستهما وتناقضاتهما مستأنسا برقعة الجغرافيا البشرية، متجاوزا حدود الكشف والتصوير بآليات معينة، ليعبر عن سبل امتلاك ذلك الواقع ثقافيا وفنيا وجماليا، بالاعتماد على البناء الفكري العام للمجتمع وعلى الخيال الواعي، الذي يعيد تشكيل الواقع في صورته العميقة الكاشفة عن أغواره بعيدا عن السطحية والفهم المحدود.

ومما لا شك فيه أن ذلك التصوير قد يختزل موقف الكاتب، ويبرز تدخل عوامل نفسية واجتماعية سيطرت في لحظة ما من اللحظات على مجريات تطور إنتاجه الفني واستكملت رؤيته، وأعانته على احتواء الموضوعات وتحويلها إلى صوغ فني مبدع وجميل يتجاوز قشور الواقع إلى ما وراءه من تشابك وتعقيد[2]؛ صوغ يتكشف ثقافيا وجماليا انطلاقا من جذور المجتمع نفسه، ومن خصوصية الذات ذاتها.

3. تداولية الخطاب الثقافي وتجلياته في أدبيات الشيخ الإبراهيمي:

من المعروف في عرف الباحثين أن التداولية تهتم بجميع شروط الخطاب، وتعتمد أسلوبا ما في فهمه وإدراكه، كما تهتم بكيفية استعمال اللغة وكلّ ما يتعلق بمظاهر هذا

الاستعمال وخصائصه، من حوافز نفسية للمتكلم، ونماذج اجتماعية تتحكم في موضوع الخطاب، كل ذلك في مقابل المظهر التركيبي الذي يعنى بالعلاقات التركيبية الشكلية، والمظهر الدلالي الذي يعنى بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية والواقع[3]، والواضح أن ذلك هو ما سعى إليه الشيخ، حينما وظّف جملة من الصيغ والأدوات للدلالة على القوة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه؛ كالتقرير والاستفهام والنفي والطلب والدعاء والترجي وغيرها، وكلّ تلك الأدوات – في الحقيقة– أفعال كلام "تصب في كيان ما يعرف بالمقاصد والمعاني والإفادات التي تستفاد من صيغ التواصل العربي وألفاظه"[4]؛ أي إنّ تطبيق المفهوم التداولي على نصوص الشيخ يبرز خصائصها، ويفسر الذهنية المتحكمة في إنتاج الثقافة وفهم مدلولاتها، ويرصد التنظيم المحكم لإنتاج الخطاب اللغوي في ضوء نسق من القواعد السيكولوجية والاجتماعية والثقافية المتاحة، وبذلك كلّه يمكن إجراء قراءة تحليلية قائمة على دلالة المعاني في النصوص الإبراهيمية، حيث نذهب في تحليل عناصرها بعيدا، لنلتمس كلّ الاحتمالات الثقافية التي يمكن أن تشع بها.

بناء على ما سبق يمكن أن نستجلي سيمياء الثقافة في النصوص الإبراهيمية بالوقوف على ما يأتي:

- **ثقافة الذات ماثلة في شخص الإبراهيمي:**

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "يموت العظماء فلا يندثر فيهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله (الأرض)، وتبقى معانيهم الحية قوة تحرك، ورابطة تجمع، ونورا يهدي وعطرا ينعش، وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو كون العظمة خلودا، فإنّ كل ما يخلّف العظماء من ميراث هو أعمال يحتذيها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها في الحياة"[5]. إنّ أدنى تأمل في هذا النص [الذي عبّر من خلاله "عما يختلج به قلبه وضميره من آراء وأحاسيس، إذ إنّ الكثيرين يتخذون من مهنة الكتابة وسيلة للإشادة بأفكار ومبادئ لا يؤمنون بها"[6]] يوحي بالافتراض المسبق الذي تضمنه سياق الحديث عن العظمة، فعلى الرغم من أن الخطاب موجه نحو من يبحثون عن شخصية الإمام ابن باديس رفيق دربه، فإن

المقام يقتضي القول بأن الرجل يفهم معنى العظمة لأنه عظيم، تتجسد معاني العظمة في شخصيته نشأة وتكوينا وإشعاعا وقولا وكتابة وسلوكا، وهذا ما عبّرت عنه تلك الدلالات التي تضمنها نصه، وعبّر عنها الشيخ العربي التبسي في كثير من المجالس: "إن الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان، وإن العظمة أصل في طبعه"[7]. وعليه يمكن القول إنّ المفهوم التخاطبي المستفاد من هذا النص هو الاستدلال على صناعة الذات الكامنة خلف مفهوم الرجل العظيم، الرجل الذي لا يبالي بمظاهر الحياة الزائفة الزائلة، ويسعى إلى إسعاد غيره كي يسعد هو؛ وكلّ هذه المتضمنات توحي باكتساب الروح قبسا من النورانية الإلهية، ومضيها نحو الاقتداء بسبل الأنبياء[8].

- **ثقافة الانتماء**

تتجلى ثقافة الانتماء في الذات الجزائرية من خلال أشكال شتّى، يمكن استخلاص مفهومها من خلال تأويل مجموعة من السياقات التي وردت في نصوص الإبراهيمي، ويمكن الوقوف على هذه الأشكال من خلال ما يأتي:

أ. ثقافة الانتماء إلى الوطن:

إنّ أقل ما يمكن أن يتكشف لنا في هذا المقام هو ثقافة الحب التي ارتسمت مخارج حروفها كي ترنو بأصوات الهمس التي حملتها كلمة "حب" على صفحات الشوق والحنين الدالة على تبادل مشاعر الأبوة والبنوة بين ابن بار وأم رؤوم، ابن نشأ بين الأحضان، ثم غاب وارتحل بجسمه بين الأقطار، إلى أن عاد إلى الديار؛ تلكم هي اللغة الشاعرية التي تزرع في كلّ متلق لخطابات الشيخ ثقافة حب الوطن، وتغرس في قلبه روح النضال من أجله، والوعي بفضائله.

لنتأمل قول الشيخ: "أيها الوطن الحبيب: رضيت من قسمة الله أن لم يجعلني أبا لأبناء الصلب وأفلاذ القلب وحدهم [...] بل جعلني أبا لأبنائك كلهم، يلوذون من علمي بكنف رعاية [...] ورضيت فوق الرضا بأبوتك لي أن رضيت ببنوتي لك، وبمينا لو تبرجت لي المواطن في حللها، وتطامنت[*] لي الجبال بقللها، لتفتنني عنك لمِاَ رأيت لك عديلا، ولا

اتخذت بك بديلا، وإذا كانت أوطان الإسلام كلها وطن المسلم بحكم الدين، فإن اختصاصك بالهوى والحب من حكم الفطرة السليمة، ولنا في رسول الله أسوة حسنة في حبه لمكة وحنينه إليها"[9].

وقوله أيضا: "أما الشوق إليك فحدث ولا حرج، وأما فراقك فشدة يعقبها الفرج وأما الحديث عليك فأزهار تضوّع منها الأرج ... ومعذرة إليك إذا كنت ارتخيت، ثم انتخيت، فإنما هي نخوة الأباة الأشاوس، يدفعون بها وساوس الصدور، ويدفعون بها في صدور الوساوس"[10].

لقد تفنن الشيخ حقا في التغني ببلاده وأسمعت كلماته الأصم، ولم يكن ذلك إلا أنينا اقتطره قلب الرجل دما واعتصرته قزحيته عبرات، إنه اللوم الذي لزم النفس التي طلّقت حضن الوطن في صمت، ثم ما لبث أن خاطبه العقل الرشيد لينبئه عن عزم وإقدام ونية خالصة وقصد شريف غايته موسومة بشارة "الحب" من جديد، ذلك الفلك الواسع الدائرة الذي يتجلى في إعادة الاعتبار لذات الجزائر، منبت الهوى، وسكن الروح.

ب. ثقافة الانتماء القومي (العروبة):

لسنا قاصدين بذكر هذا الانتماء الفصل بين عربية الجزائر وعربية الأمة العربية، بقدر ما نقصد بأن الشيخ توجه نحو إبراز رابطة الولاء التي كانت الجزائر تجدد عهدها، كلما مس الوطن العربي لغوب أو ألمت به نائبة من نوائب الدهر، وذاك هو الدرب الذي سلكه الإبراهيمي، مقيما الوصال بين الجزائر وأمّتها التي ترعرعت في كنفها، في ظل وجود أهم عناصر الهوية: الدين واللغة (الإسلام والعروبة)، حاملا هموم هذه الأمة، كاشفا مكمن الداء وباحثا عن الدواء.

هو إذا استلزام حواري وأقوال مضمرة وأفعال كلامية أنجزها الشيخ في خطابه، مدللا على كل ذلك بمعان تحيل على مفاهيم تخاطبية يحتاج استخراجها إلى تأمل؛ يقول الشيخ في عيون البصائر (فلسطين واجباتها على العرب) مخاطبا نخوة العربي والمسلم: "وهذا الوطن الذي نبتنا في ثراه، وغُذِّينا بثمراته، وتقلبنا بين جباله وسهوله في النضرة والنعيم [...] وطن

عربي المنتسب، يشهد بذلك القلم واللسان، والأسماء والأفعال، وتشهد بذلك التواريخ المكتوبة، والأخبار غير المكذوبة، فإذا تظلم وتألم لفلسطين وامتعض وارتمض للعدوان عليها، وإذا نهض يواسي ويعين، ويسعف ويسعد، فهو حقيق بذلك، وإن ذلك لبعض حق فلسطين علي"[11]. ثم يصف الداء قائلا: "وهل من الصحيح أن التفجع والتوجع، والتظلم والتألم، والأقوال تتعالى والاحتجاجات تتوالى، هي كل ما لفلسطين علينا من حق"[12].

ويوجه الانتقادات اللاذعة للحكومات العربية والشعوب العربية وزعمائها عن تلك المواقف المهينة بإزاء قضايا العروبة والوحدة قائلا: "أيها العرب ما أضيع حكمة الأسلاف عندكم، لقد أبقوا لكم من وحي السماء وحكمة الحكماء، ما لا يبليه التراب ولا تنسيه الأحقاب، وما لو عملتم به لسدتم الكون أئمة، وقدتم الكائنات بالأزمّة [...]، ولكنكم أضعتم التراث بتشاكس الوراث، [...] أيها العرب: أطعتم الكبراء فأضلوكم، وخضعتم للأمراء فأذلوكم، حتى لِنْتُم للعاجم، ودنتم للأعاجم، وحتى ألقيتم بالمقاود لمن سماهم أجدادكم رقاب المزاود، فويحكم: أغني ويقترض؟ ومحجوج ويعترض؟ عز الداء وغاب الآسي... لم يأسُ جراحَكم ألفُ "دكتور"، فهل يأسوها "دكتاتور"؟"[13].

إن هذه الكلمات تنضح بالبيان، ومن الحكمة ما ينم عن عظمة الرجل فعلا وتأسيه بمحمد (ﷺ) قدوة ومنبرا، فكلّ نبرة نبعت من هذه الدلالات لم تخلدها الذكريات فقط، بل نبعت لتحكي واقعا هو وليد الأزمات.

وأبدى الشيخ آراءً في سبل "تحريك أوتار طال العهد بسكونها، ونفض غبارٍ اطمأنت النفوس إلى ركوده، ونقد خصال من الضعف والفسولة والخور عششت في نفوسنا حتى ألفناها وركنا إليها، حتى أصبح الفطام عنها صعبا»[14]، ثم أرسل أيقونات تعكس رد فعله تجاه الأزمة التي حرمته لذة العيش في أحضان وطنه، وصيّرت أمته متناثرة متفرقة، إنها معضلة الوحدة، تلك الشفرة التي أراد للقارئ العربي أن يفكّها حينما يدرك معنى "عيد الأضحى وفلسطين": "أيها المسلمون افهموا ما في هذا العيد من رموز الفداء والتضحية والمعاناة، لا ما فيه من معاني الزينة والدعة والمطاعم، ذاك حق الله على الروح، وهذا حق

الجسد عليكم"[15]، فما العيد إلا رمز للوحدة العربية والإسلامية، وما التزين فيه إلا مظهر خارجي لا يعكس حقيقة الواقع المرير، الذي يعيشه كل واع بما فعل بنو صهيون ببني جلدته كلهم، لأن القضية قضية هوية أمّة.

بين سطور هذا الخطاب وخطابات أخرى للشيخ ما انفكت تدافع عن الحجاز والمدينة وبلاد الشام ومصر والعراق وتونس والمغرب وليبيا، وعن الجزائر، يمكننا أن نقرأ ثقافة ذات عربية مزقتها الفرقة.

ج. ثقافة الانتماء المغاربي والإفريقي:

تتكشف الذات المغاربية في نظر الشيخ من خلال النظر إلى الشمال الإفريقي على أنه فلذّة من كبد الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبير، وبقية مما فتح عقبة والمهاجر وحسان[16]، وأنّ فيه "كنوزا من تراث العربية والإسلام، طمرها الاستعمار...وطمس محاسنها بحضارته قصدا"[17].

وخاطب الشيخ في مقام آخر العقول النيرة التي يمكنها أن تكون سندا وعونا قويا في استخراج تلك الكنوز بإحياء الأخلاق والآداب والتاريخ، ودعاها قائلا: "أيها المغاربة، إن عدوّكم عرف من دينكم أكثر مما تعرفون، بل عرف منه مالا تعرفون، وهو أنه منتج للقوة والفضائل، فلذلك حاربه عالما به، وكنتم عونا له على حربه [...] فهل لكم أن تراجعوا بصائركم [...] فتعلمون أي ذخائر من القوة أضعتم"[18]. وفي ذلك إشارة إلى الحصن المنيع الذي ما كان ينبغي للمغاربة أن يهجروه: كتاب الله وسنة رسوله.

- **ثقافة المقاومة**

تمثل المقاومة في فقه الإبراهيمي ظاهرة ثقافية لها أدبيّاتها، حيث إنها تستمد ذلك الشكل من العمل الثقافي والتعبئة السياسية، اللذين يمثلان أرضا خصبة تستولد المقاومةَ المسلحة وتحتضنها، وتضمن لها استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات[19]. ويتوضح من ذلك أن نجاح المقاومة مرهون بقدرتها على استمالة أكبر عدد ممكن من فئات الشعب وإقناعه بها، مما يخلق وعيا جديدا بمفهوم القومية والوطنية، أي إنّ المقاومة المسلحة في

معناها الأعمق: «ليست قشرة، [بل] هي ثمرة لزراعة ضاربة جذورها عميقا في الأرض، وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية، فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى الناتج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع؛ المقاومة على صعيد الرفض، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف»[20].

لقد بدأ الشيخ إذا دعوته الثقافية إلى المقاومة وتحرير الشعب الجزائري، مبينا أنها: "بدأت بتحرير العقول تمهيدا للتحرير النهائي"[21]، ومكرسا مبدأ الذود عن العرين، وحماية مقومات الهوية التي سبق وأن أشار إلى أنّ المعمر غاص في التعرف على جذورها، حتى يشوّه صورتها لدى العربي المحتل عموما والجزائري بصفة خاصة، بفرض قشور حضارته[22] وكل أشكال التغريب والهيمنة والاستلاب، والواضح أنّ ثقافته هذه كانت مبشرة بانتصار الجزائري لذاته.

- **الثقافة الدينية والحس العقدي:**

نالت تجربة الكتابة والإبداع في البعد الديني للذات الجزائرية حظها الوافر من آثار الشيخ الإبراهيمي، ويبدو أن "استدعاء الرافد الديني المتعالي في الخطاب [...] العربي يشير إلى بعد تداولي خاص لهذا الخطاب، لما لهذا الرافد من أثر في نفس المتلقي العربي على مرّ التاريخ. واشتراك هذه الخطابات مع هذا الرافد في المعنى؛ يعطي هذه الخطابات بالضرورة معنى متعاليا أيضا"[23]، حيث نجد أنّ الشيخ قد تشبع بالثقافة الإسلامية، ووظّفها بواسطة التّناص وجملة أخرى من أدوات الاتساق والانسجام توظيفا ينبئ عن تمكنه منها فليس ثمة عنوان خلا من الإشارة إلى الدين الإسلامي بعباداته أو معاملاته أو عقائده، فالرجل في النهاية داعية وفيلسوف ومفكر مسلم، وفي انتقال كل هذه الموروثات والقيم من سياقها الدّيني إلى علامات لغوية دالة على سياق اجتماعي، يظهر الموروث الثقافي ليمنح قيمة جمالية ورؤية تداولية جديدة للخطاب.

ولسنا نبالغ إن قلنا بأنّ تلك المقوّمات الدينية قد أعطت بعدا آخر للكتابة الإبراهيمية لأن الذات الجزائرية كثيرا ما تبحث عن نفسها في ظل عقيدتها، مهما سارت بها الأهواء.

لقد تحرّى الشيخ نشر الثقافة الإسلامية من خلال نشاطاته ضمن جمعية العلماء المسلمين وخارجها، سعيا منه إلى تطهير الإسلام من مختلف الشوائب التي علقت به والعودة به إلى نقاوته الأولى في عهد الصحابة والتابعين، ليشكل في العصر الحديث قبسات نور وقوة روحية للمسلمين الجزائريين تدفع بهم نحو تطهير أرضهم من الفكر النصراني الذي حاول المعمّر نشره والتبشير به بكلّ الوسائل. وها نحن أمام نص مفعم بالمعاني السامية التي يمكن أن تلجم فوهات البنادق الفرنسية، وتبعث ثقافة حقة في ذات الجزائري فينهض في همة وعزم ليحمي هويته: "... فمن آثارنا بث الوعي واليقظة في الشعب، حتى أصبح يعرف ما له وما عليه، ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأمجاد العرب، التي كان الاستعمار يسدّ عليها منافذ شعاعها، ... ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضار الضلال والابتداع وإبراز فضائل الإسلام، وأولها الاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة، والاستكانة أو الاستسلام ...، ومنها العلم ...، ومنها بذل المال والنفس في سبيل الدين والوطن، ومنها التمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام...»[24].

ولابد أن نشير في هذا المقام إلى أن جملة الإصلاحات العقدية التي تبناها الشيخ؛ هي عقيدة إصلاح التربية، عقيدة اتّباع السنة، عقيدة نبذ الطرقية، عقيدة الأخلاق، عقيدة الأخوة، عقيدة نبذ الموالاة لغير المسلمين، وغيرها مما قد ينير معالم الدين الإسلامي.

- **ثقافة ترقية اللغة العربية ودحض فكرة التعريب.**

أشاد الشيخ في عدة مقامات بفضل العربية على سائر العلوم، وأثرها في لغات الأمم الأخرى، استكمالا للإشادة بالإسلام، الذي لا تحفظ كرامته ما لم تحفظ لغته: "أيها الإخوان لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعلم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته، لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم..."[25].

لقد وجه الشيخ عديد الخطابات نحو مفهوم الثقافة العربية والقومية العربية، ليبيّن قدرتها الرنّانة على خلق ذات عربية متشبعة بروح الإيمان، بسرعة انتشارها وبقائها حية صالحة لكل زمان ومكان، قاصدا من وراء ذلك اشتراطها ضرورة حضارية وثقافية لحفظ موروث الأمة من الضياع، وخلق تواصل بين الأجيال العربية المتعاقبة. وفي مقابل ذلك، نفى الشيخ أن يكون للتعريب مكانة في ثقافة العرب والعربية، ذلك أنه دال على وحشية في معناه، مع أن لفظه جميل في مبناه، مما يعني أنه خطف الأنظار من خلال هذا المستعار ولأن طبعه عربي يتعارض مع المعنى المختلق ألقى الشيخ باللائمة على استقبال هذا الدخيل غير المرغوب فيه، وتَرْكِه يصول ويجول في نظامها[26].

4– دعائم الثقافة في كتابات الإبراهيمي:

إنّ ذلك الحس الثقافي الذي يمتلكه الشيخ هو إبداع استلهمه من ذاته الجزائرية أولا، ثم غذّته تلك الرحلات التي جاب من خلالها الأوطان وارتحل بينها، ليبلور أشكالا وألوانا أخرى من الثقافة العربية والإسلامية وحتى الأجنبية، واكتسب من كل ذلك ما يأتي:

4–1/ الحس الأدبي والنقدي:

يحيلنا الاطلاع على ما ورد في الجزء الرابع من الآثار على حقيقة مفادها أن تذوّق الأدب لدى الإمام الأديب إنما هو نابع من سعة الاطّلاع والتمحيص والتمييز بين ما هو غثّ وما هو سمين، ما هو صالح لأن يولّد لغة حقيقية (كأشعار العرب وأحاديثهم وخطبهم)، أو يولّد أدبا محضا (ككتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرها)، وكل ما من شأنه أن يكمّل ملكة الأدب من إلمام بأصول الاستشهاد أو معرفة بطبقات الفحول في الأدب، وعلى إثر ذلك تبيّن له أن درجة الثقافة الأدبية لدى أدباء عصره لا تزال تحت خط الفقر، لأنهم لا يقرأون، وإذا قرأوا ففتات من هنا وهناك، لا يسمن ولا يغني.

4–2/ الحس العلمي:

كان الشيخ على وعي بالدور الفاعل للعلم في النهوض بالمجتمعات ورقيها، لذا سار قدما نحو إرساء روابط تدعم تعليم أبناء الجزائر داخل البلاد وخارجها، معلّقا آماله عليهم

في دفع عجلة الذات نحو الإيمان بقيم الثقافة والأيديولوجيات السائدة. يقول الشيخ مخاطبا الطلبة الجزائريين: "إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات، إلا إذا انقطعتم لطلب العلم، وتبتلتم إليه تبتيلا، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب، واستثمرتم كنوزه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة، ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار"[27].

4- 3/ **الحس الاجتماعي:**

يتكون الحس الاجتماعي لدى المثقف إذا استطاع أن يدعم ثقافته بتأول مجموعة من الأيديولوجيات المكونة لمجتمعه، وفهم طبيعة علاقتها بذاته، ونذكر من تلك المكونات المجتمعية:

أ/ التعليم:

هو مكون أساس وجوهري، يحرك عجلة التنمية في كل أمة، وهي تنمية شاملة لها مد ينطلق من التربية ويصل حد الثقافة، لأن كل تنمية تنبئ عن وعي ثقافي، وبالتالي يمكن القول إن التعليم أساس الثقافة، ولما كان الأمر كذلك وجه الشيخ رسائل وعظ وإرشاد إلى المعلمين، نذكر منها قوله الشهير: "إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش الممالك رعاياها أطفال الأمة، فسُوسُوهُم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل، إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلَّمَتْهُم إليكم أطفالا لتردوهم إليها رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظا لتعمروها بالمعاني ... إنكم رعاة، وإنكم مسؤولون عن رعيتكم، وإنكم بناة، وإن الباني مسؤول عما يقع في البناء من زيغ أو انحراف"[28].

ب.الأسرة:

من المفاهيم التي أسس الشيخ على ضوئها رؤيته الثقافية: الأسرة الجزائرية؛ عمود المجتمع ومنبت الذوات، ومما لاشك فيه أنّ الأسرة بداية هي المرأة، لذلك خصّها الشيخ بعنوان في آثاره: "المرأة المسلمة في الجزائر"، ثم فصل في مكونات الأسرة وطبيعتها في المجتمع

الجزائري؛ قائلا: "المرأة المسلمة موضوع ذو شُعَب: جهلها، تربيتها، تعليمها، حجابها وظيفتها في البيت، والرجل المسلم موضوع أكثر تشعبا، والشاب المسلم موضوع، والطفل موضوع كذلك"[29]، ثم ما لبث أن وصف هذه الفئات وصنّفها وفقا لانتمائها الجغرافي ووضعها الاقتصادي، ومقومات هويتها[30].

وعاد الشيخ مرة أخرى ليفك مفاتيح عنوانه الرئيس، ليحدّثنا مغتاظا عن المرأة الجزائرية داخل مجتمعها، ونظرة أهلها الساذجة إليها على أنها أَمَة لا يمكن أن يضيئ لها العلم طريقا (فيما عدا بعض من آي القرآن لبعضهن)، لأنه منبت الفساد لها، ثم عبّر الشيخ عن انتظارها الطويل الذي باغتته ظلمة فجر المعمّر؛ بل الليل المظلم بشمس الفرنسية، التي ستقضي على أمل الحرية[31]؛ لكن فجر العروبة والإسلام سرعان ما فكّ الظلام باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

أمّا الشباب فقد رأى فيهم الشيخ "الساف الجديد في بناء الأمة، والدم المجدد لحياتها والامتداد الطبيعي لتاريخها"[32]، لذا عمد إلى مناداتهم ومناجاتهم، وتوجيههم إلى البقاء شوكة في حلق كل من يريد النيل من هوياتهم (أوطانهم، عروبتهم، وإسلامهم)، ثم حيّ فيهم روح النخوة والمحبة والتآخي[33].

ج. العادات والتقاليد:

ترمز العادات والتقاليد في المجتمعات العربية إلى ربط أواصر التعاون والتضامن والمحبة والتآخي وإبراز الحس الإنساني، كما تشير إلى وحدة المجتمع والتماسك بين أفراده، وهي سمات لا تتوفر لكثير من الأمم والمجتمعات الأخرى، وعلى ذلك حمّلها الشيخ مدلولات ثقافية تعبر تعبيرا صادقا عن كل تلك المعاني السامية، والأخلاق النبيلة المتولدة عن ماض مشرق بعربيته، وحاضر تحكمه سنن من الشمائل المحمدية المكملة لتلك العروبة. ولعل أهم الشواهد الثقافية التي دعم بها الشيخ نصوصه الدالة هي سنة الاحتفالات التي توضح تجذّر الأعراف في شخصية الجزائري، والتي ذكر منها الشيخ أمثلة كثيرة، منها: الاحتفالات بختم القرآن، أو بليلة المولد النبوي، أو بيوم الهجرة ورأس السنة الهجرية، أو بيوم بدر، وغيرها مما يتعلق بأسباب طارئة وبواعث تاريخية دعت تلك العادات إليها.

حاول الشيخ أن يفصل بين ما هو محمود من تلك الوقائع ويشكل نشوة للمسلم، وبين ما هو منبوذ يثير الحفائظ، ويستفز المشاعر، وترفضه السليقة. وقد ربط هذا الأخير بالفكر الغربي الذي يسعى دوما إلى استعمار الروح العربية. ومع أن الجزائريين قد خالفوا سنن اليهود والنصارى حتى زمن غير بعيد، إلا أنّ أهل المشرق حاولوا أن يهيبوا بتلك التقاليد المتعصرنة، وأن يجعلوا منها شعائر، على شاكلة تلك الشعائر التي يقيمها أهل البدع[34].

وهذا لا يعني أن حسّ التثاقف غير مطلوب لدى الشيخ، بل إنه من أوائل الذين يشجعون ثقافة (الأنا والآخر)، في إطار تقبل الآخر، ومعرفة حدود خيره وشره.

وخلاصة القول:

إن هذه القراءة الموجزة لأعمال البشير الإبراهيمي، ما هي إلا فيض من غيض، أو قطرة من بحر سعت إلى الكشف عن أهم الشواهد الثقافية التي قبعت وراء خطاباته، لتميط اللثام عن تجربة ذات أبعاد تداولية جديدة، تحكي عن سحر اللغة ووضوح البيان، ودورهما في تجسيد خطاب أدبي يكشف عن آلية تحول تلك اللغة إلى دوال تحمل أنساقا ثقافية تستمد أبعادها من الواقع الذي أنتجها، فتسدّ فجوات معرفية كثيرة لم تكن لتنسج خيوط الذات والجماعة في يسر، أو لتقبل الكشف عما هو داخلي أو سري فيهما.

لقد كانت تجربة البحث في ثنايا تلك الكتابات حافزا لقراءة تاريخ الجزائر وحضارتها وانتماءاتها بكل أدوات تحليل الخطاب وتأويله، لأن هذا الكاتب الفذ أبدع في تصوير ذاته الثقافية، ولم يترك مجالا للتشكيك في عبقريته وعظمته أديبا عربيا وعالما ومفكرا جزائريا.

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر: سمر حسن سليمان. عناصر الثقافة، مقال منشور على الرابط:
https://plateformedidactique.blogspot.com/2017/05/blog-post_22.html
آخر تحديث :14:30، 31 مارس، 2016.

(2)– ينظر: باديس فوغالي، موضوعات القصة الجزائرية القصيرة عند المرأة والرؤية القصصية لأشكال القهر الاجتماعي (محاضرات الملتقى الوطني الثاني في السيمياء والنص الأدبي) منشورات جامعة بسكرة، دار الهدى، الجزائر، 2002، ص 249.

(3)– ينظر: فرنسواز أرمينكو. المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، دت، ص8. وينظر: الطاهر لوصيف. التداولية اللسانية، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، ع:17، ص 8.

(4)– محمود جلال الدين سليمان. علم اللغة الاجتماعي وتطبيقاته في تعليم العربية، عالم الكتب القاهرة، ط1، 2015، ص 64.

(5)– محمد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر. جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج3، ص588.

(6)– عادل نويهض. البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر (الأعمال الخاصة بالجزائر4)، دار الأبحاث، لبنان، 1986، ص 16.

(7)– محمد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 16.

(8)– ينظر: عادل نويهض. البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، ص 14.

(*)– تطامنت بمعنى انخفضت، وكأن الجبال انحت وانخفضت له بقممها، يقال طامن ظهره: إذا حناه، ينظر: الأزهري. تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرغب، دار إحياء التراث، بيروت 2001، مادة طمن).

(9)– محمد البشير الإبراهيمي. الآثار، (تحية غائب كالآيب)، ج4، ص184.

(10)– المصدر نفسه، ج 4، ص 185.

(11)– المصدر نفسه، ج3، ص 453.

(12)– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(13)– المصدر نفسه، ج3، ص 525.

(14)– المصدر نفسه، ج 2، ص 123.

(15)– المصدر نفسه، ج 3، ص 462.

(16)– المصدر نفسه، ج 4، ص 104.

(17)– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(18)– المصدر نفسه، ج4، ص 303.

(19)– ينظر: يوسف العايب. تجليات ثقافة المقاومة في فكر محمد البشير الإبراهيمي وأدبه، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، منشورات جامعة لخضر حمة، الوادي، 2015، ع:7، ص 183. نقلا عن: غسان كنفاني. الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، ص 9.

(20)– ينظر: يوسف العايب. تجليات ثقافة المقاومة في فكر محمد البشير الإبراهيمي وأدبه ص183، نقلا عن غسان كنفاني. الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، ص9.

(21)– محمد البشير الإبراهيمي. الآثار، ج 4، ص12.

(22)– ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص(379–381).

(23)– عبد الفتاح أحمد يوسف. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص(68،69).

(24)– محمد البشير الإبراهيمي. الآثار، ج5، ص(287،288).

(25)– المصدر نفسه، ج1، ص 373.

(26)– المصدر نفسه، ج5، ص 261.

(27)– المصدر نفسه، ج3، ص 208.

(28)– المجلس الأعلى للغة العربية. مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، منور الأذهان وفارس البيان، دار الخلدونية، الجزائر، 2009، ص85، عن جريدة البصائر، ع: 68 1949.

(29)– محمد البشير الإبراهيمي. الآثار، ج 4، ص 263.

(30)– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(31)– للاستزادة؛ ينظر: المصدر نفسه، ج 4، ص 266.

(32)– المصدر نفسه، ج 4، ص 267.

(33)– ينظر: المصدر نفسه، ص 271.

(34)– للاستزادة؛ ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص(328–332).